جدلية الجهل والفقر .. لدى المسلمين

08-9-2003

الجدلية قائمة حاليا حول من صنع فقرنا وتخلفنا أهو المحيط الداخلي الذي ندور في فلكه .. أم المحيط الخارجي المتمثل في الموانع الخارجية.. أم هو الجهل بأبجديات الحضارة ومفردات الاقتصاد. إن من منن المولى عز وجل علينا أن جعلنا نسكن أغنى المناطق على الكوكب الأرضي ورغم هذا فأيدينا مشلولة على أن تتصرف في هذه الكنوز الربانية بعقلانية فلم يستفد منها سوى العدو التقليدي بشكل مباشر وغير المباشر .. ومن الحسرة أن نتحدث عن مواد أولية تباع للضفة الأخرى بثمن

بقلم عبدالباقي صلاي

نظرية كينز الاقتصادية لم تأت إلا من أجل وضع رأسمالي بائس أفرزتها الظروف .. فأزمة الكساد التى ضربت العالم عام 1929م هي التي فتحت المجال أمام العلامة كينز ليسطع نجمه ويذيع صيته كرجل إطفاء ومنقذ لما تبقى من اقتصاد الغرب المنهار .

ملخص هذه النظرية أنها ثورة على النظريات الكلاسيكية حتى أن هذه النظرية لقبت بالثورة الكنزية لأنها غيرت المفاهيم الاقتصادية السائدة آنذاك رأسا على عقب. لقد برزت هذه النظرية كرد فعل قوي للأوضاع الاقتصادية وبدعائم أساسية أبرزها تدخل الدولة مباشرة في الاقتصاد القومي من أجل زيادة الطلب على الاستهلاك، وزيادة الطلب على الاستثمار لأن ترك الحبل على الغارب دون مراقبة يكون فيها سلطان القانون هو المهيمن معنىّ ذلك تشجيع الفوضى وخلق فئة مجنونة تمارس هواية الاحتكار على حساب الأكثرية .

فالعلامة كينز رفض بشكل مطلق فكرة الحدوث التلقائي للتوضيف الكامل للموارد الإنتاجية في المجتمع التى هي من دعائم النظام الرأسمالي الذي يقوم حسب نظرية آدم سميث "دعه يعمل دعه يمر". بيد أن النظرية ورغم أنها كانت بلسما للإقتصاد الغربي فيما بعد إلا أنها تبقى حكرا فقط على الدول الغربية، لأن النظرية غربية الروح والجسد ولا تصلح البتة لتكون حلا لمشكل التنمية في بلد متخلف كالعالم الإسلامي مثلا. و السؤال الذي يطرح نفسه بقوة علينا نحن المنتمين إلى فئة خط طنجة- جاكرتا المرتمين في أحضان الأزمة والراضين بالغرق في الوحل .. لماذا الأجناس الأخرى المختلفة الألوان و المتعددة الديانات كلما ألمت بها نوبة أو أزمة مهما كان شكلها وحجمها إلا وخرجت منها كما تخرج الشعرة من العجين؟ هل ولادتنا نحن لم تكن طبيعية، أم أن التركيبة الفسيولوجية بها خلل كروموزومي أجهز على مواطن القوة الإنسانية فينا؟

إن أزمة الكساد العالمية دامت أربع سنوات إلا أن الحل في النهاية هو الذي كان المسيطر .. والنظريات التي كتب لها أن تخرج اقتصاد الغرب من ورطته كنظرية العلامة شاخت الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى بحيث أخرجت الاقتصاد الألماني من مدفنه لتدب فيه الحياة من جديد كانت محلية مائة بالمائة، ولم تجد للأسف نفس النظرية ونفس الدكتور الواضع لهذه النظرية في تفكيك الألغام التي كانت محيطة بالاقتصاد الإندونيسي رغم توفير كل الشروط الضرورية والبيئية والزمنية لإنجاح العملية .. السبب بسيط جدا هو أن النظرية لم تكن إندونيسية المنبت.

وإن كانت نظرية كينز قاتلة لسابقتها، فهي لم تكن إلا حلقة ضمن السلسلة التي تؤسس الفكر الرأسمالي الغربي ولبنة مكملة للنظام المبني أساسا على الحرية في كل شيء ، فالتواصل عند الغربيين من الثوابت التي لا يجري عليها تغيير .. مهما كانت السياسات ومهما اختلف تفكير الأشخاص و تنوعت الحكومات .

الجدلية قائمة حاليا حول من صنع فقرنا وتخلفنا أهو المحيط الداخلي الذي ندور في فلكه .. أم المحيط الخارجي المتمثل في الموانع الخارجية.. أم هو الجهل بأبجديات الحضارة ومفردات الاقتصاد. إن من منن المولى عز وجل علينا أن جعلنا نسكن أغنى المناطق على الكوكب الأرضي ورغم هذا فأيدينا مشلولة على أن تتصرف في هذه الكنوز الربانية بعقلانية فلم يستفد منها سوى العدو التقليدي بشكل مباشر وغير المباشر .. ومن الحسرة أن نتحدث عن مواد أولية تباع للضفة الأخرى بثمن بخس لتعود إلينا بثمن خيالي نعجز عن دفعه .. إلا من قروضهم إلينا وبالفوائد الربوية.. وعلى أكثرية النظريات التي تكتشف لتموت في نفس اليوم يبقى اندفاعنا نحو الأخذ بأسباب التقدم الاقتصادي رهن التماوت الذي نسقيه بجهلنا. فلا نحن نظمنا حياتنا بالكيفية التي بها نساير الواقع المفضي إلى بلوغ الأوج الحضاري .. ولا نحن أعلنا بالصريح أننا لا نستحق الحياة وللآخرين من الأجناس الأخرى الحق كل الحق في التصرف فينا كعبيد وفي الكنوز الربانية كمالك مطلق.

إن غياب نظرية اقتصادية تأخذ في الحسبان الواقع البيئي للمسلمين هي التي أجهزت على مقدراتنا البشرية والمادية .. وهذا الغياب لم يكن قسريا من صنع الآخرين بقدر ما كان من صنع ذواتنا وبإرادتنا.. فكينز لم يأت من السماء ليجد الحل للكساد العالمي .. بل كان الرجل نتاج إفرازات المجتمع الغربي.. ففهم محيطه والآليات الكفيلة لحل المغاليق. ونفس الرجل لم يكن جاهلا متماهيا مع التفسيرات المغلوطة المبنية على فرضية أيهما أولى، الإعتماد على ما نملكه ولو ضئيلا، أوما لا نملكه ولو كان بتراب الأرض. وهنا الملكية تتمثل في المقدرات المعرفية التي تعد الركيزة الأساسية لكل هبة اقتصادية.. عكسنا نحن المسلمين الذين رضينا بسقوط الخلافة الإسلامية بعد أزمة الكساد بخمس سنوات واتبعنا الإستعمار شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى أدخلنا هذا الاستعمار جحر الضب ولم يدخله هو .. فكنا كالفقر الذي يتبع الجهل أينما حل وارتحل. والفقر المعرفي حقيق بصنع الفقر المادي وليس العكس.. ولن تجد أمة على وجه الأرض ارتقت في العلياء من غير همة علمية وطلاق بائن للجهل قبل الأمية – فرق بين الجهل و الأمية باعتبار الجهل أخطر من الأمية- والحضارة الإسلامية التي دامت أكثر من أثني عشر قرنا لم يطل بها البقاء لو لم تكن في جنباتها أنهار من المعرفة

تمد الأرض الإسلامية.. وليس خافيا علينا اليوم كي نعيد دفتر أيامنا لنحدد واجباتنا قبل حقوقنا ونؤسس عهدا جديدا قوامه الوعي خصوصا في ظل ما يجري للعالم من تغير .. ونظن أن كل ما يجري اليوم على الخشبة العالمية هو من قبيل الإحياء لنا كأمة لو كان لنا لب ونهى. وإذا ما أمعنا التفكير في القطب الأوحد الذي بدأ ينهار بعد أن انهار القطب الآخر في بداية التسعينيات نستطيع القفز إلى الصفوف الأمامية لو حركنا المادة الرمادية التي بالمخ وأجهزنا على فقرنا المعرفي برجوعنا أولا لمواريثنا كما فعل كينز عندما فجر نظريته الاقتصادية.. وثانيا ننطلق بدون عقدة نحو المستقبل الند للند مع من يناصبوننا العداء اليوم ويحاولون إخصاءنا حضاريا.. فلسنا بأنقص منهم ولسنا بأضعف منهم ولسنا بأقبح منهم وليس كينزا بأجدر على حل مشاكل أهله وعشيرته منا نحن أمة أفضل و أطول حضارة عرفتها البشرية قاطبة.